نقد وتعليق ...

على رواية

مرجريت (١)

بقلم الاستاذ محمد علي كمال الدين

تقينا هذا المقال في الوقت الذي كنا نعد فيه نقدنا على الرواية فاكتفينا بذلك في الوقت الحاضر — التحرير

—◎—

عندما بدأت انظر الصفحات الاولى من هذه الرواية عرضت لخيالي صور وافكار متتابعة تعترض تأملاني تارة وتظفر بها اخرى مما اضطرني الى الاعادة فيما نظرت .

كنت معيدا متعمقاً في تفكيره فاحاطتني سحب من الاحلام البيض والوساوس السود ما طار بي الى عالم الخيال وكأنني من رواد خيالة هوليوود مسمراً في كرسي على شاطئ دجلة الأفيح مستهويا لشيطانها الذي ملك علي سمعي وبصري وشعوري ولا سيما ان شيطان الرواية كان صادقا في وحيه مخلصاً في الهامه او ان شيطان الشاعر كان ذا اسلوب محبوك طلي جذاب ولذلك لا غرابة لو وجدتني ماخوذا بخفة روح هذا الشيطان ولطف نفسه منقاداً بنعومة يده متعامياً عن تلك العمة الكبيرة واللحية الكثة والبزة المدثرة لهذا الشيخ الصغير باسمه الكبير بادبه وشعره وظرفه . وليس من حرج في ذكر شيطان الشاعر بعد ما تشكل صاحبنا في روايته بمختلف الاشكال: شاعراً وفيلسوفا وآلهة وطبيباً ومحاوجبيا وهو لم يزل ذلك الشيخ علي الصغير بعلمانيته وصمدانيته .

١ — اخال ان شيطانه يستوقفك معي عندما نطالع وصفه الليل في ص ٩ حيث قال :

وكأن الافق الجميل غريق ومن النجم شد بالامراس
وكأن الهلال زورق نور وعلى شاطئ المجرة راسي
منظر يبهر العقول وافق زاخر بالسرور والايناس

ترى وجوه الشبه بين صفرة الافق والغريق وضئالتها من جهة وبين عظمة الليل والبحر وحلوكتها من جهة اخرى — ترى ان وجوه الشبه بينها واضحة كل الوضوح ولا سيما بعدما تعلق الغريق بخيوط الكواكب .

وربما استوقفنا هذا الشيطان في ص ٣٦ بقوله :

هدأ الليل فيك فالكون غاف وحديث السمار اذ ذاك همس

فأنت لا ترى مبالغة في وصف هدوء الليل أشد من هذه المرة، غفوة هذا الكون العظيم واعظم من هذا الهمس الذي انتجا اليه السمار بتأثير طبيعة الهدوء .

وقد وفق الشاعر بوصف الزورق والبحيرة في ص ٢٥ قال:

ايها الزورق رعيا واستمع وحي الشوق
قل لأمواجك اما رشفت كأس الرحيق
قد صحا الكون فمن عربدة السكر افيقي
انت في عاصفه والقوم في سكر عميق

لقد ابدع بنصيحة الزورق للامواج الثملة ان تفيق من العربدة قدوة لصحو الكون . غير ان الشاعر لم يوفق بوصف القوم بالسكر وكان الاولى ان يصفهم بالصمت كي لا يبقى مجال لاستمرار الامواج في الاضطراب .

وقد وفق أيضا في ص ٢٦ بقوله :

ما احيل البحر والزورق يجري في امانه
هادئاً كالطفل لا يحلم في غير الاماني
هنا الاحلام والموج به معتنقان

لقد ابدع الشاعر بتشبيه راكب الزورق بالطفل الهادئ بهدوء الطفل في المهد بحيث لا تنبعث منه غير الأماني البيض ويحق للشاعر ان يعجب ببحر تتعانق فيه الامواج والاحلام .

ومن وصفياته الجميلة وصف الحبيب والاصيل في ص ٢١ قال :—

ورآها الاصيل فاهتز بشراً للقاها وقال ما ابهاها
خالها انها ابنة الافق لما غمر الكون بالشعاع سناها

(١) للاستاذ الشيخ علي الصغير طبعت في مطبعة دار النشر والتأليف في النجف الاشرف سنة ١٩٤٨

فكساها من لونه الشفق الرا ائع فاحمر من حياً خداها
ودوى النحل حول مبسمها العذ ب فقطت بالجلنار الشفاها
طاقر الحسن ثغرها فسقاها فهي سكرى لكن بخمر لماها

ترى الشاعر ألبس هذه الابيات ثوبا زاهياً من حمرة الشفق وجلاها عروسا مزينة باحسن انواع الزينة واجمل اساليبها وانتقى لها كلمات موسيقية مثل قوله : ما ابهاها . وقوله : من حياً . وفي البيت الاخير كلمة : لكن .

٢ ـ نستعرض الآن يا صاحبي فلسفة الشاعر على لسان « فينيس » إلهة الجمال قال :

من جمالي اكتسى الوجود جمالا فانا مصدر الجمال الذاتي
تأمل دقائق الحسن في الكو ن تجده ازدهى بحسن صفاتي
انا في الافق بدره وتراني زهرة في الخمائل العطرات
انا اديم الحقول الا اديمي ونبات الربيع الا نباتي
انا قيثارة المغني اذا ما حركت منه كامن الزفرات

يحق لالهة الجمال الفخر بأنها مصدره وانه مظهر تجلياتها اما وصف الجمال بانه ذاتي غير عرضي فهو من نظريات الشاعر اللاهوتية يخالفه الفلاسفة الذين يرون ان الجمال من الصفات الاضافية فقد يكون الشيء جميلا في نظر شخص قبيحاً في نظر غيره وقد يكون البياض جميلا في نظر جماعة في حين ان آخرين يفضلون السمرة عليه وهكذا الامر في كل الاشياء الطبيعية والاصطناعية .

واليك رأي الشاعر في فلسفة الحب نقد اجاب فيلسوفه عن سؤال مارية في ص ٤٤ قائلا :

فكم فكرت في الحب لكي اعرف تصويره
تحققت بان الحب ذاتي وانا صورة

يظهر من وصفه للحب بذاتيته وان جسمه هو الصورة يظهر انه ينحو منحى اهل العرفان بنظرية الذات الحقيقية تلك النظرية المستمدة اجمالا من المثالية الافلاطونية . ومنها استمد (هيكل) على ما يظهر نظريته بان سمى تلك الذات بالمطلق هذا ما يوحيه شيطان الشاعر في قوله بان الحب ذاتي وانا صورة غير اننا لا نطمئن نفسنا الى هذا الوحي مرجحين انها كلمة جاءت عفوا على لسانه وان تعريف الحب لديه هو الذي جاء على لسان شاعره في ص ٤٥ حيث قال :

ليس الهوى غير نظره في القلب تعقب حسره
وقطرة من معين تعود بالهجر جمره
يهد شم الرواسي وانما هو ذره

فيكون الحب بموجب نظريته هو نظرة كما زعم ذلك جماعة من العشاق .

٣ ـ لقد اتينا على تقريض الرواية وآن لنا مناقشتها من النواحي الفنية :

« أ » يظهر من تسبق الرواية ورفع الستار وانزاله ان الشاعر ارادها تمثيلية في حين ان وسيلة التحدث والوصف والتخيل الانفرادية لا تتفق مع التمثيل او الحوار التمثيلي وان هذه الوسيلة أمس صلة بالقصص والروايات الخيالية ومع ذلك رأينا الشاعر تمسك بها في معظم فصول روايته ما عدا ابيات في الفصل الخامس .

« ب » ان الشاعر لم يراع الناحية العملية في عرض مناظر الفصل الاول « الطبيعية » فقد عرض اجمل مناظرها وما يحدث فيها عادة في الليل ولكنه خلل بين تلك المناظر منظراً آخر يناقض الليل وهو منظر الشروق الامر الذي لا يتفق والتمثيل العملي . ولو انه وضع منظر الشروق في آخر الفصل لاتسقت الرواية . والى القارئ بعض الابيات التي وصف فيها الشروق في ص ١١ :

لك من هذه الطبيعة بيت لم يزل في تغنى عن الحراس
تشرق الشمس في الصباح عليه ثم تكسوه روعة في الاماسي
لك من آية النهار شعاع فيها يرجى الشفاء بعد اليأس
انت كالنبت بالأشعة تنمو فاقتبسها للخير خير اقتباس

والى القارئ بعض الابيات التي وصف فيها الليل قال في ص ٩ في وصف الطبيعة :

لك منها في الليل ابق بهي بسناه تغني عن النبراس
زينته بالرائعات من الحسـ ـن افتتانا من سائر الاجناس

وقال في ص ١٥ :

السما الزرقاء والقمر المشر ق فيها يشق جيب الظلام
والنجوم التي تناثر فيهـا كاللآلئ فوق العباب الطامي

وقال في ص ٢٠ :

سرها ان ترى الهلال اخاها فاستفزت احلامها ورؤاها
قابلته فهام فيها اشتياقا فانحنى نحوها نقبل فاها

(ج) لم نجد في الفصل الثالث ذكراً مهما في وصف الوادي فكان الاولى به ان يعنون الفصل بـ« الغرام » فان البحث كان مقصورا عليه . واغرب ما وجدنا في هذا الفصل ان وسائل الغرام التي استخدمها الشاعر كانت ابحاثا فلسفية مجردة مملة في فلسفة الحب وكان الاولى لهذه الابحاث ان تبعد الشاعر ومرجريت عن الحب والغرام لا ان تبعث في نفسيهما وتثير عواطف الغرام . واليك ايها القارئ بعض مقطوعاته في ذلك فقد جاء في ص ٤٢ :

أفللزهر ايها الفيلسوف الشيخ روح وللورود قلوب ؟
وله في الوجود كالناس عشق وله في الحياة ثم حبيب

وقال في ص ٤٣ :

يا فتاتي سمعا فللزهر روح هو من جنسه ففيم الملام
هو معنى النمو فيها ولو لا الروح لم تم هذه الاجسام
اخصي ذرة الوجود ففيها ائتلاف هو الهوى والغرام

ويقول على لسان الشاعر في ص ٤٥ :

رب قلب هادئ بات من الحب خليا
حذر الحب لئلا يغتدي فيه شقيا

ومنها :

هكذا عاش زمانا مظلم القلب دجيا
فاتى الفجر اليه حاملا عطراً شذيا

ومنها :

ورأى الشمس لدى العصر شعاعا ذهبيا
من حلاها تلبس الافق رداءً نرجسيا
فمضى يلتمس الحسن ندبا فنديا
وغدى يملكه حبا اذا ازدان جليا

ويقول على لسان مرجريت في ص ٤٧ :

قد وصفت الحب وصف العارفين
فلقد اوضحت سر العاشقين
لاح في مقلتك السر الدفين
وعلى وجهك رمز المغرمين

وعلى اثر مثل هذه المقطوعات وما تتضمنه من ابحاث فلسفية واعتيادية يعلن المؤلف غرامه على لسان الشاعر فيقول في ص ٤٨ :

دعيني واشعاري وحبي واسقامي فحبي اني فيك رتلت انغامي
ومن طرفك الفتاك مني حشاشة وما اخطأ المرمى غداة رمى الرامي

ومنها في ص ٤٩ :

سلي ليلة البحر الرهيبة اذ طما بها الموج عن قلبي وعن حبه الطامي
وفي الزورق المسحور والفجر ضاحك لثغر ضحوك منك بالبشر بسام
فانت التي اوحيت لي الشعر والهوى واترعت لي كاس الهوى وانا ضامي

ونحن لو ناقشنا تلك المقطوعات لما وجدنا فيها ما يوجب هذا الحب الصارخ في هذه الاغاني الشعرية والانغام المرتلة في ذلك الزورق المسحور وذلك الثغر البسام . ولعمري لقد صدق في قوله : « وانا ضامي » . غير اننا نرى انه لا يزال ضامياً لم يرتشف معين الحب .

اعود الى مناقشة الرواية من ناحيتي اللغة ورسم الخط فقد جاء في ص ٥٠ « زاك الغمام » والصواب : زاكي وفي ص ٦٩ كلة البؤساء بمعنى المعوزين والصواب : البائسين . وفي ص ٧١ : في شأن . والصواب : بشأن . وفي ص ٩٣ سلام ووداع . والصواب : سلاما ووداعا . وفي ص ٩٤ : فاضني للنجوى . والصواب : اصغ .

ومن اغلاط رسم الخط في ص ٨ ملؤها . والصواب ملئها وفي ص ١٤ . ملؤه ، والصواب ملئه . وفي ص ١٧ وليمتلأ والصواب وليمتلئ . وفي ص ٨٦ واقرأ . والصواب واقرئ وفي ص ٩٠ ارسل . والصواب . ارسلي . وفي ص ٩٧ فستسموا . والصواب فستسمو . وايضا دعى . والصواب دعا

لقد اطلنا على القارئ حديثنا في نقد الرواية وتقريضها وهذا دليل اهتمامنا واعجابنا بها فلم نرم من تسجيله غير خدمة الادب والاعتراف بفضل الشاعر . واخيرا نرجو له ولروايته النجاح والتوفيق .

بغداد محمد علي كمال الدين